

المحاضرة الخامسة

مقالات محمد عبدة

لعل محمد عبده واحداً من أهم رواد المقالة العربية الحديثة، فقد كتب مجموعة كبيرة من المقالات، ضمنها آراءه وتعاليمه في الدين والسياسة والاجتماع. ومقالاته عموماً مرت بمرحلتين:

أما المرحلة الأولى فتمثلها المقالات الأولى التي نشرها في (الأهرام) في ١٨٧٦، وتتميز بغلبة السجع عليها، وخلوها من الأفكار والنظرات العميقة، بسبب ثقافته المحدودة في بداية حياته الثقافية، وفي الوقت ذاته نجده يقدم لموضوعاته في المقالات بمقدمات طويلة تجهد نفس القارئ، نلمح هذه الخصائص في هذه القطعة لإحدى مقالاته "لما انتشر نوع الإنسان في أقطار الأرض، وبعد ما بينهم في الطول والعرض، مع ما بينهم من المعاملات، ومواثيق المعاهدات، أحتاجوا إلى التخاطب في شؤونهم، مع تنائي أمنتهم، وتباعد أوطانهم، فكان لسان المرسل إذا ذاك لسان البريد، وما يدرك هل حفظ ما يبدي المرسل وما يعيد، وإن حفظ هل يقدر على تأدية ما يريد، بدون أن ينقص أو يزيد، أو يبعد القريب أو يقر البعيد، فكم من رسول أعقبه سيف مسلول، أو عنق مغلول، أو حرب تخدم الأنفاس، ونعمر الأرماس، ومع ذلك كان خلاف المرام، ورمية من غير رام، فالتجنؤا إلى استعمال رقم القلم ووكلا الأمر إليه فيما يتكلم".

وأما المرحلة الثانية **فمثلاً** المقالات التي كتبها بعد أن اكتملت ثقافته ونضجت شخصيته وزادت خبرته في مختلف المجالات، إذ أخذ يطلع على الكتب العربية القديمة مثل كتاب (مقدمة ابن خلدون) الذي كان يدرس في دار العلوم، فوجد فيه وفي غيره من الكتب لغة سهلة لا تكلف فيها ولا تعقيد، ووجد الأسلوب نفسه في آثار الفكر الأوربي التي صار يقرأها مترجمة، وفيما بعد أخذ يقرأها في لغاتها الأصلية حين تعلم الفرنسية، كما أتصل بجمال الدين الأفغاني فرأى عنده قدرة على تصريف

المعاني وابتداع أفكار جديدة لهذا كله تخلص أسلوبه من السجع وكل ضروب التكلف والتعقيد، فغداً أسلوباً مرسلًا وواضحاً، وصارت مقالاته تثري فكرياً فتعبر خير تعبير عن مختلف المسائل الفكرية، وتتخلص في الوقت عينه من المقدمات الطويلة التي وجدناها عنده في مقالات المرحلة الأولى.

وهو "لم يكتف بذلك بل أخذ يعمل على نشر هذا الأسلوب بين تلاميذه الذين كانوا يكتبون معه أمثال سعد زغلول، كما أخذ يُشجع الصحف على احتذائه والضرب على قوالبه، وفي الوقت نفسه كان ينتقد من يكتبون فيها، وطلب إلى أصحابها أن يختاروا من يحسن الكتابة بالأسلوب الجديد، وفتح في الوقائع صفحات أدبية واجتماعية وسياسية يكتب فيها هو وتلاميذه، وكأنه يريد أن يضع بين الكتاب النموذج الأدبي الجديد الذي ينبغي أن يتوافروا عليه... فتحريره الوقائع كان خطوة كبيرة في سبيل الرقي بلغة المخاطبات الحكومية وبلغة الصحافة، فقد خرج بها من أسلوب السجع والفواصل وأنواع الجناس والبديع إلى أسلوب مرسل حر، لا يضيق بالمعاني ولا يضيق به القراء"^(١).

وعلى الجملة نضجت المقالة، وتهدبت عند محمد عبده. إذ صارت الموضوعات فيها تُرتَّب ترتيباً منطقيًا، وكثر فيها استعمال الأقيسة والبراهين وتقليب الفكرة على شتى وجوهها، وقوي أسلوبها فبلغ درجة عظيمة من المتانة، تجلّى كلّ ذلك في مقالات "الوقائع المصرية" وإليك مثالاً. على ذلك من مقالة عنوانها "العدالة والعلم" هذان الأساسان الجليلان (أعني العدالة والعلم) مُتلازمان في عالم الوجود، متى سبق أحدهما إلى بلاد تبعه الآخر على الأثر، ومتى فارق أحد منهما جهة تعلق الثاني بغباره، فلا يكاد يرفع قدمه أو يضعها إلا وصاحبه يُرافقه، بهذا يُنبئنا التاريخ وتحدثنا سيرّ الدول التي ارتفع بها منار العدل أو بزغت فيها شمس العلم، كيف

(١) الأدب العربي في مصر، ص ٢٢٤

تمتعت بالنورين، وطارَت إلى أوج السعادة بهاذين الجناحين، حتى إذا أتت حوادث الدهر على أحد الأساسين تهدمه. سقط الآخر بأسرع وقت وانحطت الدولة المصابة بفقدته إلى أسفل الدركات فأغسق حوَّها بكثيف من الظلمات وغُشيت أبصارها حُجب من الجهالة.

وسر هذا جلي، فإن العلم إذا انتشر في قوم أضاعت لهم السبيل واتضحت المسالك وميزوا الخير من الشر والضار من النافع فرسخ في عقولهم أن المساواة والعدالة هما العلة الأولى لدوام السعادة، فيطلبونها بالنفس والنفس، وأن الظلم والجور قرينان للخراب والشقاوة، وإذا رسخت قدم العدالة في أمة تمهدت لها طرق الراحة، وعرف كل ما له وما عليه، فتلهبت فيهم الأفكار، وتلطف الإحساس، وقويت قلوبهم على جانب ما ينفعهم ودفع ما يضرهم، فيدركون الأول وهلة أن لا دوام لما وصلوا إليه، ولا ثبات لما تحصلوا عليه، إلا إذا تأيَّد بينهم شأن المعارف الحقيقية، وعمت التربية سائر أفرادهم، فيقدمون بكليتهم على الأخذ بالأسباب المؤدية لانتشار العلوم وتعميمها في سائر الأنحاء.

يتضح في المقالة الأسلوب الواضح والمرسل وتجنب المحسنات البديعية والثراء الفكري والأفكار الاجتماعية والسياسة البناءة.